

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩ - سُورَةُ الزَّمْرِ

سميت بها لاشتغالها على الآية التي ذكر فيها زمر الفريقين ، المشيرة إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجّة وإبطالان المذرة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايى . وهى مكية ، واستثنى بمضمهم ثلاث آيات^(١) (قُلْ يَمِبَادِي) الخ ذهابا إلى أنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة على ماروى . قيل ، ورابعة وهى^(٢) (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) حكاه ابن الجوزى ، وتقدم الكلام فى مثل هذا . وآياتها خمس وسبعون .

أخرج النسائى^(٣) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم . وكان ﷺ يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) أخرجه فى : ٢٢ - كتاب الصيام ، ٣٤ - باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » أى هذا تنزيل . أو تنزيله كائن من الله . وقرئ (تَنْزِيلٌ) بالنصب على إضمار فعل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » أى عن شوب الشرك والرياء ، بإحاض التوحيد وتصفية السر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ)

« أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » أى الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة ، لانفراده بالألوهية « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى بالحببة ، للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ » أى يقولون ذلك احتجاجاً على ضلالتهم « إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى عند حشر معبوداتهم معهم ، فيقرن كلا منهم مع من يتولاه ، من عابد ومعبود . ويدخل المبطل النار

مع المبطلين ، كما يدخل الحق الجنة مع المحقين « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ »
لا يوصله إلى النجاة ومقرّ الأبرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ

اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَهُوَ اللَّهُ

الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » أى نزهه عن المائلة والمجانسة ، واصطفاه الولد . لكون الوحدة لازمة

لذاته ، وقهره بوحدايته لغيره . فلا تماثل في الوجود ، فكيف في الوجود ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ

النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ،

أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)

[٦] (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ

مِمَّنِيَّةً أَزْوَاجًا ، يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ

ثَلَاثَ ، ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى

الَّيْلِ » أى بإذهاب أحدهما وتغشية الآخر مكانه . كأنما ألبسه ولفّ عليه « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو منتهى دوره ، أو منقطع حركته « أَلَا هُوَ

الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا » أى من نفسها ونوعها

« زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَلَاثَةَ أَنْعَامٍ ذَكَرْنَاكَ وَأَنْتَى . مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعْزِ » يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ « أى متقلبين فى أطوار الخلقه » فى ظلماتٍ ثلاثٍ « يعنى البطن والرحم والمشيمة » ذَلِكُمْ « أى الخالق لصوركم ، المكور أى المصروف بقدرته ، المسخر بسلطانه ، المنشىء للكثرة من نفس واحدة بحكمته ، المنزل للنعم بنعمته » اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ « أى عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » أى عن إيمانكم « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » أى لأنه سبب هلاكهم « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » أى وإن تستعملوا ما أنعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم ، لأنه دينه . ويثيبكم ثوابا حسنا لطاعتكم .

تنبیه :

فى الإكليل : استدلل بقوله تعالى (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) على أنه تعالى لا يرضى الكفر والمعاصى . وعلى أن الرضا غير الإرادة . وهو أحد قولى أهل السنة . والقول الثانى وحكاه الآمدى عن الجمهور ، أن الرضا والإرادة سياتان ، وهما (العباد) فى الآية على المخلصين . « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل حاملة حمل أخرى ، أى ما عليها من الذنوب ، أو لا تؤخذ نفس بذنوب أخرى ، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » أى بعد الموت « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بما فى القلوب من الخير والشر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۸] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ

نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ،

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)

[۹] (أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءِإِنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا

رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ)

« وَإِذَا مَسَّ » أى أصاب « الْإِنْسَانَ ضُرٌّ » أى شدة وبلاء « دَعَا رَبَّهُ وَ مُنِيبًا إِلَيْهِ »

أى ابتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه ، مقبلاً إليه بالدعاء والتضرع « ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ وَ »

أى أعطاه « نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ » أى نسى الضر الذى كان

يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة . وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه .

ف (ما) بمعنى (من) أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفى ، ولما فى (ما) من الإبهام والتفخيم ،

« وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » أى يصد الناس عن دينه وطاعته « قُلْ تَمَتَّعْ

بِكُفْرِكَ » أى عش به « قَلِيلًا » أى يسيراً فى الدنيا « إِنَّكَ مِن أَصْحَابِ النَّارِ * أَمَّنْ هُوَ

قَنِتٌ ءِإِنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا » أى متعبداً فى ساعاته يقطعها فى السجود والقيام

« يَحْذَرُ الْآخِرَةَ » أى عقابها « وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ » أى جفته ورضوانه ، أى :

أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد الناسى لربه ؟ « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ »

أى توحيده وأمره ونهيه فى الثواب والطاعة « وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يستويان .

تنبيهات :

الأول - في الآية استحباب قيام الليل . قال ابن عباس : آناء الليل : جوف الليل . وقال الحسن : ساعاته أوله ووسطه وآخره .

الثاني - في قوله تعالى (يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِمْ) ردّ على من ذمّ العبادة خوفاً من النار أو رجاء الجنة . وقال عليه السلام (١) (حولها ندندن) .

الثالث - في قوله تعالى (هَلْ يَسْتَوِي) الآية مدح العلم ورفعة قدره . وذمّ الجهل ونقصه . وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالمة ، كما أنه لا يكافئ بنت العالم ، أفاده في (الإكليل) .

وفي الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم ، إذ عبر عنهم أولاً بـ(القانت) ثم نفي المساواة بينه وبين غيره ، ليكون تأكيداً له ، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم .

قال القاشاني : وإنما كان الطمع هو العالم ، لأن العلم هو الذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس ، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته ، بل سيطر بالبحم والدم ، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه ، وأما الرسم في حيز التخيل ، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه ، فليس بعلم . إنما هو أمر تصوريّ وتخيل عارض لا يلبث ، بل يزول سريعاً . لا يغزو القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ » أي يتعظ بهذا الذكر « أُولُوا الْأَلْبَابِ » أي العقول الصافية عن قشر التخيل والوهم ، لتحققها بالعلم الراسخ الذي يتأثر به الظاهر . وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه .

(١) أخرجه أبو داود في: ٢ - كتاب الصلاة ، ١٢٤ - باب في تخفيف الصلاة ، حديث

رقم ٧٩٢ ، عن بعض أصحاب النبي عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ لِعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« قُلْ لِعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ »

أى للذين أحسنوا بالطاعات فى الدنيا ، مثوبة حسنة فى الآخرة ، لا يكتفه كنفها « وَأَرْضُ

اللَّهِ وَاسِعَةٌ » أى بلاده كثيرة . فمن تعمس عليه التوفى على الإحسان فى وطنه ، فليهاجر إلى

حيث يتمكن منه . قال الشهاب : وجه إفادة هذا التركيب هذه المعانى الكثيرة ، أوضحه شرح

الكشاف بأن قوله (للذين أحسنوا) مستأنف لتعميل الأمر بالتقوى ، ولذا قيد بالظرف .

لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فينبغى أن يلتقى فى حرثها بذر الثوبات . وعقب بهذه الجملة لثلايمتذر

عن التفريط بعدم مساعدة المكان ، ويتعملل بعدم مفارقة الأوطان ، فكان حثا على اغتنام

فرصة الأعمار ، وترك ما يعوق من حب الديار ، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ، كما قيل :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكأها بلادى وكُلُّ العالمين أقارى

انتهى . « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ » أى على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ، ومهاجرة الأوطان

لها « أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير مكيال . تمثيل للكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

« قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » أى عن الالتفات إلى غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » أى وأمرت بذلك ، لأجل أن أكون مقدمهم

في الدنيا والآخرة . لأن إخلاصه عليه الصلاة والسلام آتم من إخلاص كل مخلص . وعلى هذا ، فالأولية في الشرف والرتبة . أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته . فالأولية زمانية على ظاهرها . ويجوز أن تجعل اللام مزيدة . كما في (أردت لأن أفعل) فيكون أمراً بالتقدم في الإخلاص .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٤] (قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي)

« قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي » أى بترك الإخلاص له « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *
قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ » أى أخصه بالعبادة « مُخْلِصًا لَهُ دِينِي » عن شوب الغير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

« فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى أهلكوا أنفسهم بالضلال ، وأهلهم بالإضلال . أو خسروا أنفسهم
بالهلاك وأهلهم به أيضا ، إن كانوا مثلهم ، أو بفقدهم فقداً لا اجتماع بعده ، إن كانوا من أهل
الجنة « أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ

بِهِ عِبَادَهُ ، يُعْبَادُ فَاتَّقُونَ)

« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » أى أطباق من النار « ذَلِكَ »

أى العذاب المتوقع به « يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ وَيُعِيدُهُمْ إِلَى اللَّهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى بعدم التعرض لما يوجب السخط . قال الزمخشري : وهذه عظة من الله تعالى ، ونصيحة بالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ،
فَبَشِّرْ عِبَادِ)

[١٨] (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْوَالِيُّونَ)

[١٩] (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَلَّا يَأْتِ تَنْقِذًا مِنَ النَّارِ)

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا » يعنى الأوثان . و (فعلوت) للمبالغة
« وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى » أى بالثواب « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » أى إيثارة للأفضل وإهتماما بالأكمل . قال الزمخشري : أراد أن يكونوا
نقادا فى الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل . ويدخل تحته المذاهب
واختيار أثبتها على السبك ، وأقواها عند السبر ، وأينها دليلا وأمارة . وأن لا تكون
فى مذهبك كما قال القائل (١) :

* ولا تسكن مثل عيرٍ قيدٍ فأنقادا *

يريد المقلد . انتهى . ويدخل تحته أيضا إيثارة الأفضل من كل نوعين ، اعتراضا . كالواجب
مع الندب . والمعفو مع القصاص . والإخفاء مع الإبداء فى الصدقة ، وهكذا « أُولَئِكَ
الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْوَالِيُّونَ » * أفمن حق عليه كلمة العذاب أفانت
تنقذ من فى النار » أى أفانت تنقذه منها ؟ أى : لا يمكن إنقاذه أصلا .

(١) صدره كما فى الشواهد : * شمّر وكن فى أمور الدين مجتهدا *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَعِنْدَ اللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيثَاقَ)

[٢١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ وَ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْرِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

« لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعِنْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيثَاقَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ وَ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْرِجُ » أى يتم جفافه « فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا » أى فتاتاً « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ » أى لتذكيراً وتنبيحاً على أنه لا بد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تمطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى (١) (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (٢) (وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أفاده الزخشرى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ هُوَ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » أى وسمه لتسليم الوجه إليه وحده، ولقبول دينه وشرعه بلطفه وعنايته وإمداده سبحانه « فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ هُوَ » أى على بينة ومعرفة،

(٢) [١٨ / الكهف / ٤٥] .

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] .

واهتداء إلى الحق . واستعارة النور للهدى والعرفان ، شهيرة ، كاستعارة الظلمة لصد ذلك . وخبر (من) محذوف دل عليه قوله تعالى « فَوَيْلٌ لِلَّاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ » أى من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية ، وإعراضها عن السمكالات القدسية . أو من أجل ذكره . (من) للتعميل والسببية . وفيها معنى الابتداء لنشأها عنه . قال الشهاب : إذا قيل قسا منه) فالمراد أنه سبب لقسوة نشأت منه . وإذا قيل (قسا عنه) فالعنى أن قسوته جعلته متباعدا عن قبوله . وبهما ورد استعماله . وقد قرئ بـ (عن) فى الشواذ . لكن الأول أبلغ . لأن قسوة القلب تقتضى عدم ذكر الله . وهو معناه إذا تعدى بـ (عن) . وذكره تعالى مما يلين القلوب ، فكونه سبباً للقسوة ، يدل على شدة الكفر الذى جعل سبب الرقة ، سبباً لقسوته « أَوْلَآئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى عن طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ

هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ)

« اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا » أى يشبه بمضه بعضا ، فى الصحة

والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز « مَّثَانِي » جمع (مثنى)

بمعنى مردد ومكرر ، لما نرى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيهِ ووعده ووعيدهِ

ومواعظه « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » تمثيل لإفراط خشيتهم . أو حقيقة

لتأثرهم عند سماع آياته وحكمه ووعيدهِ ، بما يرد على قلوبهم منها « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره « ذَٰلِكَ » أى الكتاب ، أو الكائن

من الخشية والرجاء « هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ » أى من زاغ قلبه

« فَمَا لَهُ مِن هَادٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَّجْهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

« أَفَمَنْ يَتَّبِعِي بَوَّجْهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم ، أى قائماً مقامها فى أنه أول ما يمسه المؤلم له . لأن ما يتقى به هو اليدان ، وهما مغلولتان . ولو لم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه ، لأنه أعر أعضائه . وقيل : الاتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقى به ، لأن الوجه لا يتقى به . وخبر (من) محذوف كمنظأره . أى : كمن أمن العذاب « وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى : وباله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)
« كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون أن الشراياتهم منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَذَاهُمُ اللَّهُ أُنْزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
« فَأَذَاهُمُ اللَّهُ أُنْزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى الذل والصغار « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * » وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ «
أى بينا لهم فى هذا القرآن ، الذى هو دليل فى نفسه من إعجازه ، من كل مثل يحتاج إليه .

من يستدل بنظره على حقيقته وأحقيقته « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى به ما يهيمهم من أمور دينهم ، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم ، فيفسروا المعقول بالمحسوس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ » أى مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى العذاب والحزى يوم الجزاء ، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة ، والاعتقادات الفاسدة . ومن أجل تلك الأمثال ، ما مثل به ليعتق من أعظم المخوفات ، وهو الشرك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى للشرك والموحد رجلين مملوكين « رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » أى سيئو الأخلاق ، يتجاذبون ويتعاورونه فى مهماتهم المختلفة ، لا يزال متحيراً متوزع القلب ، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته « وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ » أى : خالص مملوكه له ، لا يتجه إلا إلى جهته . ولا يسير إلا لخدمته ، فهمة واحد ، وقلبه مجتمع « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » أى : صفة وحالاً . أى فى حسن الحال وراحة البال ؟ كلا . وهكذا حال من يثبت آلهة شتى . لا يزال متحيراً خائفاً لا يدرى أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد . وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحداً . فهمة واحد . ومقصده واحد . ناعم البال . خافض العيش والحال . والقصد أن توحيد العبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ^(١) (أَرْبَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

أَلْقَهَارُ) « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ » قال أبو السعود : تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض ، وتنبية للموحدين على أن ما لهم من الزية بتوفيق الله تعالى . وأنها نعمة جليمة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء ، صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته . وقوله تعالى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره . فيبقون في ورطة الشرك والضلال . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » تمهيد لما يعقبه من الاختصاص يوم القيامة . وقرئ (ماتت وماتتوف) وقيل : كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته . أى إنكم جميعاً بصدد الموت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

« ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى مالك أموركم « تَخْتَصِمُونَ » أى فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواظظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات . واجتهدت في الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجؤا في الكايرة والعناد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْإِصْدَاقِ إِذْ جَاءَهُ وَهُوَ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ » أى افترى عليه بنسبة الشريك والولد « وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ » أى بالأمر الذى هو عين الحق « إِذْ جَاءَهُ وَ » أى حضر عنده دليله وبرهانه ، فرضه ورده على قائله . أى لا أحد من المتخاصمين أظلم من حاله ذلك . لأنه أظلم من كل ظالم « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه ، وسارعوا إلى التكذيب بالحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ - أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

« وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » أى جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يعتمد بشبهة تقابله ، يعنى النبى ﷺ ومن تبعه « أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » أى الموصوفون بالتقوى التى هى أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيمهم الله ما يكرهون ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[٣٥] (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٣٦] (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

[٣٧] (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)

« لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي

كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ « أَى نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَعصمه من كل سوء، ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف » وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ « يعنى الأوثان التى عبدوها من دونه تعالى . وهذه تسليمة لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش : إنا نخاف أن تحبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها لعميك إياها . كما قال قوم هود^(۱) (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) « وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ » أى من غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلاً « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ » أى يصرفه عن مقصده ، أو يصيبه بسوء يخل بسلوكة . إذ لا راد لفضله ولا معقب لحكمه « أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَزِيدٍ ذِي انْتِقَامٍ » أى ينتقم من أعدائه لأوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۳۸] (وَلِإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَلِإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » انا تقرر فى الفطر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليه « قُلْ » أى تبسكيتا لهم « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ » أى نعمه وخيره . كلا . فإنها لا تنفع ولا تنفع « قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » أى فى جميع أمورهم ، لا على غيره . لعلمهم بأن كل ماسواه تحت قهره .

(۱) [۱۱ / هود / ۵۴] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ يٰٓقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلٰٓىٰ مَكَانَتِكُمْ اِنِّىۡ عَمِلْتُ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ)

[٤٠] (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)

« قُلْ يٰٓقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلٰٓىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالتكم التى أنتم عليها ، من العداوة ومناسبة الحق « اِنِّىۡ عَمِلْتُ » أى على مكانتى . فحذف للاختصار ، والمبالغة فى الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة ، بنصر الله عز وجل وتأنيده . ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم فى الدارين ، بقوله تعالى « فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى دائم . وقد أخزاهم الله يوم بدر^(١) (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ اَشَدُّ وَاَبْقٰٓىٰ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (اِنَّا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنْ اُهْتَدٰى فَلِنَفْسِهٖ ،

وَمَنْ ضَلَّ فَانَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا اَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيْلٍ)

« اِنَّا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ » أى لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه وافتقارهم إلى بيان مرادهم « فَمَنْ اُهْتَدٰى » أى بدلائله « فَلِنَفْسِهٖ » ومن ضلَّ فانَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا اَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيْلٍ » أى لتجبرهم على الهدى . إذ ما عليك إلا البلاغ^(٢) (فَاُصْدَعْ بِمَا نُوْمِرُ وَاَعْرَضْ عَنِ الْمُشْرِكِيْنَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (اَللّٰهُ يَتَوَفٰى الْاَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّذِيۡ لَمْ يَمُتْ فِيۡ مَنَامِهَا ، فَيَمْسِكُ

الَّذِيۡ قَضٰى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْاٰخِرٰى اِلٰى اَجَلٍ مُّسَمًّى ، اِنَّ

فِيۡ ذٰلِكَ لٰاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ)

(١) [٢٠ / طه / ١٢٧] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٤] .

« اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » أى مفارقتها لأبدانها ، بإبطال تصرفها فيها بالسكينة « وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » أى ويتوفى التي لم يكن موتها فى منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ » أى فلا يردّها إلى بدنها إلى يوم القيامة « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى وهو نوم آخر أو موت « إِنْ فِي ذَلِكَ » أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين « لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى كيفية تعلّقها بالأبدان ، وتوفىها عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

[٤٤] (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٤٥] (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

« أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا » أى هو مالِكها لا يستطيع أحد شفاعته ما ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذوناً له ، وكلاهما مفقود ههنا « لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ » أى دون آلهتهم « اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » أى فرادى ، أو مع ذكر الله تعالى « إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى يفرحون بذلك . لفرط افتقارهم بها ، ونسيانهم حق الله تعالى . ولقد بولغ فى الأمرين حيث بين الغاية فيها . فإن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه . والاشمئزاز أن يمتلئ غمًا حتى ينفبض أديم وجهه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى التجيء إلى الله بالدعاء بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم . والمقصود بيان حلهم ووعيدهم وتسليته حبيبه الأكرم . وأن جده وسعيه معلوم مشكور عنده تعالى . وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى ، والدعاء بأسمائه الحسنى ، والاستعانة بالتضرع والابتهاج على دفع كيد العدو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ

سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)

[٤٨] (وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ

الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ

مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى نزل بهم جزاؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أَوْتَيْنَاهُ

عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٠] (قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ فَمَا آغْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمِهِمْ »
 أى منى بوجوده الكسب والتحصيل « بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ » أى ابتلاء له ، أشكر تلك النعمة ،
 فيصرفها فيما خلقت له ، فيسعد . أو يكفرها فيشقى « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا
 الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى كما قال قارون^(١) « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمِ عِنْدِي » « فَمَا أَغْنَىٰ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى فما دفع عنهم ما كسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
 سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)
 [٥٢] (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ
 مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بأن الكل منه سبحانه ، ومن آياته فى ذلك
 - كما قال المهاجى - أنه تعالى قوى بذاته ، له تقوية من يشاء وتضعيف من يشاء . ومنها أنه
 فياض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء . ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب
 وواسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ لِيَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ،
 إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(١) [٢٨ / القصص / ٧٨] .

[٥٤] (وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

[٥٥] (وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[٥٦] (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ)

« قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ » أى جنّوا عليها بالإسراف فى المعاصى والكفر « لَا تَقْنَطُوا » قرئ بفتح النون وكسرها « مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ » أى لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يحوثر الإسراف « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » أى لمن تاب وآمن . فإن الإسلام يجب ما قبله « إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى توبوا إليه « وَأَسْلِمُوا لَهُ » أى استسلموا وانقادوا له . وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه « مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ » أى قصرت « فِي جَنْبِ اللَّهِ » أى فى جانب أمره ونهيه ، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل « وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ » أى المستهزئين بمن يتبع الأحسن . و (أَنْ تَقُولَ) مفعول له بتقدير مضاف . أى : فتداركوا كراهة أن تقول . أو تمليل الفعل يدل عليه ما قبله . أى أنذرکم وأمركم باتباع أحسن القول كراهة . وتفصيله فى شروح (الكشاف) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

« أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي » أى للإسلام « لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » أى :
من هذا الكفر . أى تقول هذا النوع من التحسر واتممل بما لا يجدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَأَكُونَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ » أى فى الإيمان والعمل الصالح . ثم ردّ تعالى على تلك النفس بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآءٌ يُؤْتِي فُكْرًا لَّكَ لَمَّا كُنْتُمْ فِي كُفْرٍ)
الْكُفْرِينَ

[٦٠] (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ
فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)

« بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآءٌ يُؤْتِي فُكْرًا لَّكَ لَمَّا كُنْتُمْ فِي كُفْرٍ *
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ » أى بنسبة ما يستحيل عليه من الولد
والشريك ، وتجويز ما يمنع عليه من رضاه بما هم عليه ، وأمره لهم ، وغير ذلك من إفكهم
« وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » أى لما ينافهم من الشدة التى تغير ألوانهم . فالسواد حقيق .
أو لما يلحقهم من السكّابة ، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الذائل النفسانية
فى ذواتهم . فالسواد مجاز بالاستعارة « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » أى عن
الإيمان والهدى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٢] (اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ » أى يفوزهم وفلاحهم لإيمانهم بأسباب الفوز ، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة « لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى يتولى التصرف فيه كيف شاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٦٤] (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

[٦٥] (وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[٦٦] (بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ)

« لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى هو وحده يملك أمرها وخزائن غيوبها وأبواب خيرها وبركتها « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ » أى خصه بالعبادة « وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ » أى الصارفين ما أنعم به عليهم ، إلى ما خلق لأجله .

فإن قيل : كان الظاهر (لو أشركت) لأن (أن) تقتضى احتمال الوقوع . وهو هنا

مقطوع بدمه . فالجواب : أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها لأغراض . والمراد به تهيج الرسل وإفناط الكفرة والإيدان بغاية قبج الإشراك ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطله للعمل مطلقاً ، كالحنفية . وغيرهم يرى الإحباط مقيداً بالاستمرار عليه إلى الموت ، وأنه هو المحبط في الحقيقة . وأنه إنما ترك التقييد به اعتماداً على التصريح به في آية أخرى ، وهي قوله تعالى (١) « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ » أي ما قدروا عظمته تعالى حق عظمته ، ولا عرفوا جلاله حق معرفته . حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة . مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام . فإن تبديل الأرض غير الأرض ، وطى السموات كطى السجل ، أهون شيء عليه . وفي (القبضنة واليمين) مذهبان معروفان . مذهب السلف ، وهو إثبات ذلك من غير تسكين له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل . يجرون على الظاهر ويكولون علمه إليه تعالى ويقرون بأن تأويله (أى ما يؤول إليه من حقيقته) لا يعلمه إلا الله . وهكذا قولهم في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

المذهب الثاني - القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره في كلام العرب. وإن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة . ثم من ذاهب إلى أن المجاز في المفردات، استعمرت (القبضة) للملك أو التصرف و(اليمين) للقدرة . وذاهب إلى أنه في المركب ، بتمثيل حال عظمته ونفاذ قدرته ، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض ، ويمين بها تطوى السموات . وهذا ما عول عليه الزمخشري وبسطه أحسن بسط .

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى، أنه جعل النفخ في الصور سبب موت السكل تارة، وحياتهم أخرى ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

« وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ » أى هلك « مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » أى من خواص الملائكة . أو من الشهداء . روى ذلك عن بعض التابعين . وقال قتادة : قد استثنى الله ، والله أعلم ، إلى ما صارت نُبَيْتُهُ . وهذا هو الوجه . إذ لا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع «ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» أى وقوف ، يقلّبون أبصارهم دهشا وحيرة . أو ينتظرون ما يحل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » أى لأنه يتجلّى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء « وَوُضِعَ الْكِتَابُ » أى عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرأ كل واحد عمله في صحيفته .

أو (الْكِتَابُ) مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء ، ووضعه ترشيح له . والمراد بوضعه الشروع فيه . أو هو تمثيل . وجوه نقلها الشهاب «وَجَاءَ ، بِالنَّبِيِّ مِنَ وَالشَّهَدَاءِ» أى الذين يشهدون للأمم وعليهم ، من الحفظة والأخبار المطلعين على أحوالهم . أى أحضروا للشهادة لهم أو عليهم لاطلاعهم على أحوالهم . وجوز إرادة المستشهدين فى سبيل الله تعالى ، تنويهاً بشأنهم ، وترفعاً لقدركم ، بضمهم إلى النبيين فى الموقف . ولا يبعد «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أى فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفون جزاء أعمالهم ، لا ينقص منها شيء ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

[٧١] (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِيحتَ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[٧٢] (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)

[٧٣] (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفَتِيحتَ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

«وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا» أى أفواجا متفرقة بعضها فى أثر بعض ، على تفاوت ضلالهم وغيبهم ، رعاية للعدل فى التقديم والتأخير «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفَتِيحتَ أَبْوَابُهَا» أى ليدخلوها ، ولكل فريق باب

« وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهُمْ » أى الموكلون بتعذيبهم « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ » أى من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم « يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » أى وقتكم أو يوم القيامة ، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم « قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِن حَقَّتْ » أى وجبت « كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى حكمه عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار « قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ » أى مساق إعزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار الكرامة « زُمرًا » أى متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ » أى من دنس المعاصى ، وطهرتم من خبث الخطايا « فَأَدْخَلُوها خَالِدِينَ » قال السمين : فى جواب (إِذَا) ثلاثة أوجه : أحدها - قوله (وَفُتِحَتْ) والواو زائدة . وهو رأى الكوفيين والأخفش . وإنما جىء هنا بالواو دون التى قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه . فناسب ذلك عدم الواو فيها . بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها . والثانى - أن الجواب قوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) على زيادة الواو أيضاً . الثالث - أن الجواب محذوف . قال الزمخشري : وحقه أن يقدر بعد خالدين : أى لأنه يجيئ بعد متعلقات الشرط ماعطف عليه . والتقدير : اطمانوا . وقدره المبرد : سعدوا . وعلى هذين الوجهين ، فتكون الجملة من قوله (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) فى محل نصب على الحال ، والواو واو الحال . أى جاءوها مفتوحة أبوابها . كما صرح بمفتوحة حالا من (جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ) وهو قول المبرد والفارسي وجماعة . وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية . لأن أبواب الجنة ثمانية . وردّه فى (المغنى) بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة ، لم تكن الآية منها . إذ ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب . وهى جمع لا يدل على عدد خاص . ثم الواو ليست داخلة عليه ، بل على جملة هو فيها . انتهى .

أى وهى - على قول مثبتها - الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد . ذهاباً إلى أن بعض

العرب إذا عدّوا قالوا : ستة سبعة وثمانية . إيذاناً بأن السبعة عدد تامّ ، وأن ما بعده عدد مستأنف ، فأشبهت واو الاستئناف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ)

[٧٥] (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ،

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ » أى بإيصالنا إلى ما وعدنا وأنبأنا عنه

على السنة رسله « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » أى أرض الآخرة . شبه نيلهم بأعمالهم لها ، بإرثهم

من آبائهم . فكان الأعمال آبائهم . كما قيل : * وأبى الإسلام لأب لى سواه *

وكما يقال (الصدق يورث النجاة) « نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » أى يتبوا كل من

جنته الواسعة ، أى مكان أرادته « فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ » أى الذين عملوا بما علموا

« وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ » أى الملائكة السابوية حافين فى جنة

الفرردوس حول عرش الرحمن ، محققين به . وتقدم فى تفسير آية (١) (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى جملة العرش ، فتذكره « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ » أى بين الخلائق « بِالْحَقِّ » أى بالعدل « وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

أى على ما قضى بينهم بالحق ، وأنزل كلا منزلته التى هى حقه . والقائل : إما الحق جل جلاله ،

أو الملائكة الحافون ، أو المؤمنون ممن قضى بينهم ، أو الكل ، فله الحمد عز وجل .

عن قتادة قال : افتتح الله أول الخلق بـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) فقال (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ

الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وختم بالحمد فقال (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ

وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .